ملامح الحياة بمكة فى العصرين الفاطمى والأيوبى
من واقع رحلتى ناصر خسرو وابن جبير

د. راكان ذعار المطيري
قسم الدراسات الاجتماعية
كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب

مقدمة

تعتبر كتب الرحلات من أهم مصادر تدوين التاريخ، وتصوير المجتمعات من مختلف نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفكرية، إذ إنها مشاهد عيانية من قبل الرحالة الذى يقف بنفسه على حقيقة الأخبار وينقلها كما هى، ويزداد هذا الأمر أهمية مع مدينة مكة المكرمة التى حظيت باهتمام جل الرحالة لا سيما وأن شعيرة الحج إلى مكة المكرمة كانت أحد أبرز وأهم أسباب الرحلات، ومن ثم وجدنا كثرة المصنفات التى تناولت وصف مكة ومجتمها وعادات شعبها وتقاليده وموارد المياه وحياة المجاورين، وغير ذلك وهو ما وجدناه فى رحلتين مهمتين أولاهما تناولت مكة فى العصر الفاطمى، وهى رحلة ناصر خسرو، والثانية تناولت مكة فى العصر الأيوبى .

أما بشأن الدراسات السابقة فلم يقف الباحث على دراسة مباشرة حول هذا الموضوع ، وإنما هناك دراسات عديدة حديثة وقديمة تناولت مكة ضمن أقليم الحجاز عموما فى كتب الرحلات.[١]

المبحث الأول: ملامح الحياة بمكة فى العصر الفاطمى من واقع رحلة ناصر خسرو

تعتبر رحلة ناصر خسرو من أقدم الرحلات التي وصلت إلينا، فهي أقدم من رحلة ابن جبير[٢] وابن بطوطة[٣]، ولا تتقدم عليها إلا رحلة ابن فضلان[٤]، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ رحلة ناصر خسرو الهامة، فرجح شيفر

---

[١] من تلك الدراسات على سبيل المثال لا الحصر أنظر:

* زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،القاهرة،د.ت.
* نقولا زيادة:الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت،١٩٨٧م.
* أحمد رمضان أحمد:الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربى، جدة، (د.ت).
*أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،القاهرة ،د.ت.
* رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية، دار الآفاق العربية،القاهرة، ط١،١٤٣٥ هـ/٢٠١٣م.

[٢] محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير من بني ضمرة من قبيلة كنانة المضرية العدنانية. حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الدين وشغف بها وبرزت ميوله أيضا في علم الحساب والعلوم اللغوية والأدبية وأظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا. تعلم على يد أبيه وغيره من العلماء في عصره ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن حاكم الموحدين في وظيفة كاتم السر فاستوطن غرناطة. ولم يدون ابن جبير أخبار رحلاته الثلاث بل قصر تأليفه على رحلته الأولى والتي ألف عنها :تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، رحلة ابن جبير.أنظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ،٢٣١/٢؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ،٣٨٢/٢؛ أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،القاهرة ،د.ت، ٣٠١/١.

[٣] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللوائي الطنجي، الشهير بابن بطوطة. وُلد في مدينة طنجة عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م، ويُنسب إلى قبيلة لواتة البربرية، التي انتشرت بطونها على طول سواحل إفريقية حتى مصر،وكان السلطان المغربي أبو عنان فارس المريني الذي أعجب برحلات ابن بطوطة وقصصه المشوقة، قد طلب منه أن يمليها على كاتبه محمد بن جزيّ الكلبي، وقد أطلق ابن جزي على الكتاب اسم (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)،وهو عمل مشترك قام به ابن بطوطة وابن جزي، وصبغه كل منهما بطابعه الخاص، فجعل فيه ابن بطوطة روحه التي تحب العجائب والغرائب، وجعل فيه ابن جزي أسلوبه الذي لا يخلو من صنعة وتكلف وتنميق، فهو كتاب سلس

أنها كتبت قبل عام ٤٥٣هـ/١٠٦٠م لأن ناصر خسرو يشير في كتابه إلى نصر الدولة [٥]، والذي توفي في ذلك العام. أما تقي فراده فإنه يعتقد أن الرحلة كتبت بعد سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م لأن خسرو يذكر طغرل بيك[٦] على أنه متوفٍ [٧].

وكان صاحب الرحلة أميناً في كتاباته حيث يذكر الدكتور يحيى الخشاب أنه كان "إذا رأى شيئاً رأي العين نص على ذلك نصاً ، وإذا سمع عن شيء رواه وجعل العهدة على الراوي"[٨].

الإنشاء، وفيه رواية حوادث نادرة فكهة، وتقاليد شاذة، وقد أحس ابن بطوطة بأن ما يذكر من أخبار عن الهند تُعَدُّ غريبة، وبعيدة عما هو مألوف، وبأنها ستحمل الكثير من الناس على الشك في صحة كلامه، فأقسم على ذلك بأنه صادق فيما رأى وفيما تكلم.أنظر: ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت،١٣٩١هـ/١٩٧١م ،١٨١/١، ١٨٢؛ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد،١٣٤٩هـ،٢٢٧/٥؛ حسين مؤنس:ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل،دار المعارف،القاهرة،١٩٨٠م،ص١٧ وما بعدها؛أحمد رمضان أحمد:الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربى، جدة، (د.ت)،ص٣٧٠وما بعدها؛مصطفى الشهابى:الجغرافيون العرب،دار المعارف بمصر، د.ت، ٩٠-١٠٣.

[٤] أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، كان يعيش في النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري التاسع والعاشر الميلادي. كان من موالي فاتح مصر محمد بن سليمان المنفق الكاتب الذي قتل سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م عند قعلة الري وحين قتاله مع أحمد بن علي أخ محمد بن علي الصعلوك. وأما عن محلّ ولادته ونسبته فلا توجد معلومات في هذا المجال. والنقطة الوحيدة الملفتة للنظر هي قول ملك الصقالبة مخاطباً ابن فضلان: «أنا لا أعرف هؤلاء إنّما أعرفك أنت، وذلك أنّ هؤلاء قوم عجم» ، فهل كان يعلم الملك بأنه عربي أو لغته عربية، أم خاطبه بذلك لجهله وعدم علمه؟. ولم يكن ابن فضلان رحّالة وإنما هاجر برفقة جمع من الكبار إلى أرض السلافيين أطراف نهر الفولغا بتكليف من الخليفة المقتدر العباسيّ. وذلك حينما كتب ملك الصقالبة في سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م بيد عبد الله بن باشتو الخرزي إلى الخليفة يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقّهه في الدين، ويعرّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له. فأرسل الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة وفداً يتكوّن من أربعة رجال أساسيين وبضعة مرافقين من الفقهاء والمعلمين والغلمان ومنهم ابن فضلان. أنظر : شاكر لعيبي : مقدمة رحلة ابن فضلان ، دار السويدي، أبو ظبي ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.

[٥] هو أبو النصر نصر الدولة أحمد بن مروان (ت٤٥٣هـ/١٠٦١م)ثالث ملوك الدولة الدُّوستكية المروانية الكردية في ديار بكر ومَيّافارقِين (٣٥٠ – ٤٧٨ هـ)، وهو أعظم ملوك الدولة المروانية، استمر حكمه من (٤٠١ هـ / ١٠١١ م) إلى (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)، وقد بدأ بتنظيم أمور دولته على قواعد متينة، فعيّن الولاة على أساس من الكفاءة والإخلاص، ليعيد إلى الدولة هيبتها،ويهيّئ لشعبه حياة يسودها الهدوء والاستقرار، بعد أن تزعزعت بشدة إثر اغتيال سلفه وأخيه ممهّد الدولة. عنه أنظر: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ٢٢٢،٢٢٣/٨ ؛ ابن الأثير :الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٥م، ١٩٨٢م، ١٧،١٨/١٠ ؛ابن خلكان :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ١/ ؛عبد الرقيب يوسف، الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى، مطبعة اللواء، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ٢١/١ ومابعدها.

[٦] هو السلطان أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق التركي الملقب بطغرلبك، الذي أنقذ الخلافة العباسية من السقوط، وأنقذ أهل السنة من الضياع في براثن التشيع، وأنشأ دولة سيطرت على معظم أملاك المسلمين،وتولى السلطنة سنة٤٢٩هـ، وتوفى سنة٤٥٥هـ.أنظر: الراوندى:راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى وآخرين المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،٢٠٠٥،ص١٥٩؛ ابن العبرى:تاريخ مختصر الدول،دار الآفاق العربية، القاهرة، ص١٨٤،١٨٥؛ الجوزجانى:طبقات ناصرى،ترجمة عفاف السيد زيدان،المركز القومى للترجمة،القاهرة،٢٠١٣م،٣٩٣/١.

[٧] يحيي الخشاب : مقدمة كتاب سفر نامه لناصر خسرو ، ترجمة يحيي الخشاب ، سلسلة الالف كتاب ، رقم ١٢٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص٢٣.

[٨] يحيي الخشاب : مقدمة كتاب سفر نامه لناصر خسرو ، ص٢٥.

ولد أبو معين حميد الدين ناصر خسرو علوي لأسرة متوسطة الحال في قباديان من أعمال بلخ عام ٣٩٤هـ/١٠٠٣م[٩]، ونشأ سنياً في بداياته والتحق بخدمة الغزنويين[١٠] ثم السلاجقة [١١] في بلاد فارس والتحق بخدمة جفرى بيك أخو طغرلبك المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة [١٢]، وكان خسرو واسع الاطلاع يقرأ الفلسفة ويناقش آراء الفارابي وابن سينا[١٣]، واشتهر بين أقرانه كأحد العاملين فى ديوان الإنشاء للسلاجقة، ولقب بالكاتب الفاضل، والسيد الخطير[١٤].

ذكر ناصر خسرو أن السبب الحقيقي وراء رحلته هو ما ورد في سورة محمد{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}.بالإضافة إلى ما ورد في سورة الفتح{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}، فعزم على الرحيل حتى موضع الشجرة[١٥] التي بايع المسلمون في ظلالها الرسول صلى الله عليه وسلم [١٦].

---

[٩] زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،القاهرة،د.ت، ص٥٦؛وانظر: آمال على حسن سلامة:الاتجاه العقلى فى أدب ناصر خسرو،أطروحة دكتوراة،كلية الآداب،جامعة عين شمس،١٩٨٤م،ص١٦،١٥.

[١٠]آمال سلامة:الاتجاه العقلى فى أدب ناصر خسرو،ص١٨؛وانظر:رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية،دار الآفاق العربية،القاهرة،ط١،١٤٣٥هـ/٢٠١٣م ،ص٣٠٨. وقد أخذت الدولة الغزنوية اسمها من مدينة غزنة،ويرجع ظهورها إلى"سبكتكين"،الذى تولى منطقة غزنة من قِبل السامانيين،ثم مد سلطانه في الشرق حيث ضم إقليم خراسان،الذي ولاه عليه نوح بن منصور الساماني في سنة ٣٨٤هـ، مكافأة له على قمع الثوار في بلاد النهر، لكن سبكتكين اتجه بأعماله نحو الهند،ومن أشهر حكام هذه الدولة محمود الغزنوى بن سبكتكين فاتح أكثر بلاد الهند الذى اشتهر بالملك العادل الكبير، المرابط المؤيد المنصور المجاهد يمين الدولة وأمين الملة ونظام الدين وكهف الإسلام والمسلمين ومولى أمير المؤمنين.أنظر: نظام الملك:سياست نامه،تحقيق يوسف حسين بكار،دار الثقافة،قطر،ط٢،١٤٠٧هـ،ص١٨٨-١٩٤؛ الجوزجانى:طبقات ناصرى،١/٣٦٣-٣٦٥؛عبدالمنعم النمر:تاريخ الإسلام فى الهند،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٢ م،ص٨٠؛بدر عبدالرحمن: الحياة السياسية ومظاهرالحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة،١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،ص١٩٠.١٩١.

[١١]تُنسب إلى سلجوق بن دقاق أو يقاق،وكان يقاق شهماً صاحب رأى وتدبير، وكان ملك الترك بيغو ألقى فى يده زمامه، وكان يستضىء بمصباح رأيه،وينتسب يقاق إلى عشائر الغُزّ التركمانية، التي هاجرت واستقرت في بُخارى. وهم من قبيلة غزقنق التركمانية.أنظر: الحسينى:أخبار الدولة السلجوقية،اعتنى بتصحيحه محمد إقبال،دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط١ ،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م،ص١؛الحسينى:زبدة التواريخ أخبار الأمراء و الملوك السلجوقية،تحقيق محمد نور الدين،دار اقرأ، بيروت ،١٩٨٠م، ص١-٣؛ البندارى:تاريخ آل سلجوق،دار الآفاق الجديدة،بيروت،١٩٧٨م،ص٧

[١٢] السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية ،٢٠٠٨م، ص٢١٧؛ وانظر: رحاب السيد جناحه: الرحلة الحجازية ، ص٣٠٩.

[١٣] يحيي الخشاب : مقدمة كتاب سفر نامه ، ص١٨.

[١٤] ناصر خسرو:سفر نامة،ص١؛وانظر: رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية،ص٣١٠،٣٠٩.

[١٥]الشجرة التي تمت تحتها البيعة هي سمرة وقد اندرست في عصر الصحابة ولم يعد لها وجود، قال الطبري والشجرة التي بويع تحتها بفج نحو مكة، وزعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال: أين كانت فجعل بعضهم يقول: هنا وبعضهم يقول ها هنا، فلما كثر اختلافهم، قال: سيروا هذا التكلف، فذهبت الشجرة وكانت سمرة، إما ذهب بها سيل وأما شيء سوى ذلك.أنظر:الطبرى:جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركى، هجر للطباعة والنشر،ط١،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م،٢١/٢٧٥.

[١٦] ناصر خسرو ، ديوان أشعار ناصر خسرو ، طبعة ظهران ، ص١٧٣؛وانظر: رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية، ص٣١٣،٣١٢.

وقد وقعت أحداث رحلته بين الأعوام ٤٣٧هـ/٤٤٤هـ/١٠٤٥/١٠٥٢م، وبدأت من مدينة مرو في خراسان، مرورا بأذربيجان وأرمينيا ثم الشام وفلسطين ومصر التي مكث بها ثلاث سنوات في كنف الخلفاء الفاطميين ثم إلى الحجاز للمرة الأخيرة ونجد وجنوبي العراق ومنها عاد إلى بلاد فارس وخراسان[١٧].

لم يتحدث ناصر خسرو صراحة عن تشيعه، ولكنه كان صاحب مركز ممتاز في مصر الفاطمية؛ فقد حج مرتين في صحبة رسول الخليفة الفاطمي المستنصر بالله مع أن الحج كان ممنوعا آنذاك وعاد في المرة الثانية في صحبة أمير مكة[١٨].

وأمير مكة الذى عاد خسرو فى صحبته هو تاج المعالى شكر بن أبى الفتوح الذى تولى إمارة مكة بعد وفاة والده سنة ٤٠٣هـ، وظل بها حتى توفى سنة ٤٥٣هـ ، وكان من نسل الحسن بن على بن أبى طالب[١٩].

انتهز خسرو –ربما لمكانته المتميزة في البلاط الفاطمي– فرصة سفر الكسوة[٢٠] مع وفد السلطان عن طريق بحر القلزم (البحر الأحمر) فسافر معهم وهكذا خرج من القاهرة في أول ذي القعدة ليصل إلى القلزم، ومن هناك رحل على متن إحدى السفن التي عبرت البحر في خمسة عشر يوما حتى وصل إلى ميناء الجار في الحجاز ثم واصل الجميع رحلتهم برا باتجاه المدينة المنورة في رحلة استمرت لأربعة أيام [٢١].

ثم رحل خسرو عن المدينة المنورة باتجاه مكة المكرمة[٢٢] التي وصلها في السادس من ذي الحجة، فنزل مع ركبه عند باب الصفا، ولاحظ حالة القحط الشديد التي حذر منها المرسوم الفاطمي، كما لاحظ أيضا هجرة المجاورين منها فضلا عن عدم وفود الحجاج على مكة هذا العام [٢٣].

---

[١٧] يحيي الخشاب : مقدمة كتاب سفر نامه ، ص٢٦؛وانظر: رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية،ص٣١٩.

[١٨] أغناطيوس كراتشوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى ،٢٦٠/١؛وانظر: نقولا زيادة:الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت،١٩٨٧م،ص٤٨-٥١؛ عبدالمنعم ماجد:ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر، دار الفكر العربى،القاهرة ، ط٤، ١٤١٤هـ /١٩٩٤م ، ص٣٠؛آمال سلامة: الاتجاه العقلى فى أدب ناصر خسرو،ص٢٦؛رحاب السيد جناحه: الرحلة الحجازية، ص٣١٥،٣١٤.

[١٩] الفاسى:شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام،دار الكتب العلمية ،بيروت،٣١٠/٢،٣٠٩.

[٢٠] عن حرص الفاطميين لإرسال الكسوة للكعبة المشرفة أنظر:السيد محمد الدقن:كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ،مطبعة الجبلاوى،القاهرة،ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م،ص٣٦-٦٠.

[٢١] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٢٦.

[٢٢] عرفت مكة بهذا الاسم لأنها تمك الذنوب أى تذهبها ، وقيل لأنها تمك الماء من جبالها ، وقد أحصى المؤرخون والفقهاء والمحدثون لمكة العديد من الأسماء منها مكة وبكة والبلد الأمين وأم القرى والناسة والباسة وأم رحم وأم زحم وكوثى والقادس والمقدسة والقرية والبنية والمعطشة وبرة والرتاج .أنظر: الحسن البصرى : فضائل مكة ، تحقيق محمد زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥م، ص٢٢-٢٥ ؛ الأزرقى : أخبار مكة ، تحقيق رشدى الصالح، دار الأندلس، بيروت، ٢٢٢،٢٢٣/١ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة ، ١٩٩٦م ، قسم ١ ص١١-١٥ ؛ الزركشى : إعلام الساجد بأحكام المساجد،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،القاهرة، ص٧٨-٨٣ ؛ محمد صديق حسن خان : رحلة الصديق إلى البلد العتيق ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، ص١١،١٢.

[٢٣] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١٢٧.

وهكذا قام خسرو بأداء حجته الأولى بعد الوقوف على جبل عرفات، ولبث في مكة يومين بعد الحج قبل أن تعود قافلته إلى مصر بعد رحلة استمرت خمسة وسبعين يوما ليجد في القاهرة العديد من سكان الحجاز الذين هاجروا إلى مصر نتيجة القحط الشديد الذي ضرب بلادهم، فحسبما ذكر خسرو أنه كان بالقاهرة ٣٥ ألف مهاجر من أهل الحجاز، وقام الخليفة الفاطمي المستنصر بكسوتهم وأجرى عليهم الرزق لمدة سنة كاملة[٢٤].

وفي العام التالي مباشرة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م قام خسرو بأداء فريضة الحج للمرة الثانية فذكر استمرار القحط في بلاد الحجاز للعام التالي، وهو ما دعا الخليفة المستنصر إلى إصدار مرسوم في شهر رجب يذكر فيه أنه ليس من الخير للحجاج أن يسافروا لأداء الفريضة هذا العام، وأنه لمن الأفضل لهم أن ينفقوا الأموال على أنفسهم، واستمع الحجاج المصريون لأوامر الخليفة ومكثوا في بلادهم [٢٥].

غير أن الخليفة الفاطمي استمر في إرسال كسوة الكعبة ومنح أمراء مكة والمدينة الأموال والخيول مرتين في العام. وعهد الخليفة بالكسوة والأموال إلى مبعوثه القاضي عبد الله، من قضاة الشام؛ فخرج معه أيضا ناصر خسرو من القاهرة إلى القلزم وهكذا استقل الجمع سفينة لتصل ميناء الجار بالحجاز في الخامس والعشرين من ذي القعدة، ومنه تحركوا برا إلى مكة المكرمة[٢٦].

وهكذا وصل خسرو إلى مكة المكرمة في الثامن من ذي القعدة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م ليؤدي فريضة الحج للمرة الثانية، وذكر أنه أثناء عودة الحجاج المغاربة من الحج وبالقرب من المدينة المنورة طلب الأعراب منهم دفع إتاوة، فنشب القتال بينهم وقتل من الحجاج المغاربة حوالي ألفي رجل[٢٧].

كما ذكر خسرو أنه خلال حجته الثانية رأى جماعة من حجاج خراسان الذين وصلوا إلى المدينة المنورة في السادس من ذي الحجة، وشعروا أنهم سوف يتأخرون عن موعد الحج، فعرضوا على بعض الأعراب دفع أربعين دينارا على كل حاج إذا ما استطاعوا نقلهم بسرعة إلى مكة خلال الأيام الثلاث الباقية للحاق بالحج، وبالفعل نجح الأعراب في مهمتهم تلك عبر شد وثاق الحجاج الخراسانيين في جمال سريعة فوصلوا إلى عرفات في يومين

---

[٢٤] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١٢٧.

[٢٥] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ١٢٨.

[٢٦] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص٦٦ ، ٦٧ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ج٤ ص٢٧٦ ؛ المقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص١٤ ، أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص١٩٥ ، عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ص١١١،١١٠.

[٢٧] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٢٨.

ونصف؛ ونتيجة لذلك مات اثنان من الحجاج على إثر ربطهما بالجمال السريعة، بينما شارف أربعة منهم على الهلاك حين وصولهم إلى عرفات عصرا فكانوا لا يستطيعون الوقوف أو الكلام [٢٨].

ويحكي ناصر خسرو أنه بعد انتهائه من أداء فريضة الحج للمرة الثانية عاد إلى مصر برفقة أمير مكة الذي كان يدفع له الخليفة مبلغاً مالياً لقرابته من الحسين بن علي رضي الله عنه[٢٩].

وصل خسرو من عيذاب إلى مدينة جدة[٣٠] حيث وصف مساجدها وأسواقها وذكر تبعيتها لإمارة مكة التي وصلها في جمادى الآخرة، وذكر وصول العديد من المعتمرين من بلاد الحجاز واليمن إلى مكة في أول رجب، وذكر أنهم يحضرون إليها ثلاث مرات في العام للاعتمار وأداء الحج لقرب بلادهم منها [٣١].

وحقيقة تبعية جدة لمكة التى ذكرها خسرو تؤكد على فطنته بتوصيف الحياة السياسية لمكة فى العصر الفاطمى ، ومن ثم تزيد فى تأكيد هذه التبعية عندما ذكر واقعة إعفاء أمير جده له من المكس وخروجه من البوابة بسلام إلى مكة فقال : " وقد ذهبت إلى أمير جدة فأكرم وفادتى وأعفانى مما كان يجب على من المكس ، ولم يطلبه ، وهكذا خرجت من البوابة فى سلام. وقد كتب إلى مكة يقول عنى : هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شىء منه "[٣٢].

بعد ذلك وصف ناصر خسرو مدينة مكة المكرمة مساجدها، وأسواقها، وحماماتها ودورها وإمدادات المياه بها، ثم وصف المسجد الحرام بالتفصيل طوله وعرضه، وعدد أعمدته وأبوابه، وذكر أنه يقع وسط مكة كما وصف الحجر الأسود، وباب الكعبة وارتفاعه وما كتب عليه "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة"[٣٣]. كما وصف الكعبة المشرفة من الداخل وكسوتها البيضاء والميزاب ومقام إبراهيم عليه السلام، وكذلك بئر زمزم وسقاية الحجاج [٣٤].

---

[٢٨] نفسه ، ص١٢٩،١٢٨.

[٢٩] نفسه ، ص١٢٩.

[٣٠] قيل فى سبب تسمية جدة بهذا الاسم لكونها منزل أم البشر حواء ، وكونها دفنت بها ، فهى جدة العالم ، وقيل لاشتقاق جدة من حد البحر أى شاطئه . أنظر : ابن فرج الشافعى : السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، ص٢٧ ؛ حمد الجاسر:جدة القديمة وسكانها،مجلة العرب،١٩٨٢م ، ص١١٢-١١٥. وذكر البعض أن جدة بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهو أحد العرب قبل الإسلام ولد في جدة فسماه أهله باسمها. أنظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب،دار الكتب العلمية،بيروت ، ص ١٨٤.

[٣١] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٣٧.

[٣٢] نفسه ، ص١٣٧.

[٣٣] نفسه ، ص١٣٨ وما بعدها .

[٣٤] خسرو : سفر نامه ، ص١٤٣ وما بعدها.

وقد وصف خسرو المسجد الحرام وصفاً دقيقاً وتحدث عن أطواله وأبوابه وعن سقفه وذكر أن بالمسجد " أربعة وثمانون وأربعمائة عمود من الرخام قيل أنها كلها، أرسلت من الشام عن طريق البحر". وتحدث عن عمود من الرخام الأحمر قال أنه " وضع عند باب الندوة[٣٥]، قيل أنه اشتري بوزنه ذهباً" ([٣٦]).

وذكر خسرو أن للمسجد في وقته " ثمانية عشر باباً ، عليها طيقان مقامة على عمد من الرخام، وصفت بحيث لا تعوق فتح الأبواب "[٣٧]. ويعدد ناصر خسرو أبواب الكعبة الثمانية عشر بقوله :" وللمسجد الحرام ثمانية عشر بابا عليها طيقان مقامة على عمد من الرخام وضعت بحيث لا تعوق فتح الأبواب وعلى الجانب الشرقي أربعة أبواب هي من الركن الشمالي باب النبي وبه ثلاثة طيقان مقفلة وعلى هذا الجانب نفسه عند الطرف الجنوبي (للباب الأول) باب آخر يسمى باب النبي أيضا وبين هذين البابين أكثر من مائة ذراع ولهذا الباب طاقان وفي خارجه سوق العطارين وقد كان منزل النبي عليه السلام في هذه السوق وكان يدخل من هذا الباب للصلاة في المسجد فإذا جاوز السائر هذا الباب وجد على السور الشرقي أيضا باب علي عليه السلام وهو الباب الذي كان يدخل منه أمير المؤمنين علي عليه السلام للصلاة بالمسجد وله ثلاثة طيقان فإذا جاوزه يجد عن ركن المسجد منارة أخرى يبدأ منها السعي وهي غير المنارة التي بباب بني هاشم ومن عندها ينبغي الإسراع في السعي وهي إحدى المنارات الأربع المذكورة .. وعلى الحائط الجنوبي الذي هو طول المسجد سبعة أبواب أولها على الركن المقوس واسمه باب الدقاقين وله طاقان وغربيه بقليل باب آخر ذو طاقين يقال له باب الفسانين وبعده بقليل باب الصفا وله خمسة طيقان أكبرها الطاق الأوسط وعلى كل من جانبيه طاقان صغيران وكان رسول الله عليه السلام يخرج من هذا الباب ويذهب إلى الصفا ويدعو... وبعد هذا الباب بقليل ناحية المغرب باب السطوى وله طاقان ثم من بعده بقليل باب التمارين وله طاقان ثم باب المعامل وله طاقان ويقابله بيت أبي جهل وهو الآن مرحاض ، وعلى الحائط الغربي وهي عرض المسجد ثلاثة أبواب الأول عند الركن الجنوبي واسمه باب عروة وله طاقان وفي الوسط باب إبراهيم وله ثلاثة طيقا ، وعلى الحائط الشمالي وهي طول المسجد أربعة أبواب ففي الركن الغربي باب الوسيط وله طاق واحد ومن بعده ناحية المشرق باب العجلة وله طاق واحد ومن بعده في الوسط باب الندوة وله طاقان ثم باب المشاورة وله طاق واحد وعند زاوية المسجد في الشمال الشرقي باب يسمى باب بني شيبة..."[٣٨].

---

[٣٥] بنى قصي بن كلاب دار الندوة في منتصف القرن الخامس الميلادي ، وجعل بابها إلى الكعبة، واتخذها مقراً لسكناه وإقامته، وكانت معظم الشؤون العامة الداخلية والخارجية تناقش في هذه الدار وكانت دار الندوة المكان الذي تعقد فيه ألوية الحروب التي خاضتها قريش، وكذا الإعداد للحروب.أنظر: الأزرقي؛أخبار مكة، ٢/ ١٠٢، ٢٥٢؛ الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، ٣/ ٢٦٠؛ وانظر: عواطف سلامة؛ قريش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني، الرياض، ص ٣٨.

[٣٦] خسرو : سفر نامه ، ص١٤٣.

[٣٧] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٤٣.

[٣٨] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٤٣-١٤٥.

ومما سبق يتضح الآتى :

أولاً : حرص ناصر خسرو على ذكر بابين شهيرين كان يدخل منهما النبى ، مع ذكر الباب الخاص بعلى رضى الله عنه فى إشارة إلى مذهبه الشيعى .

ثانياً : اهتم ناصر خسرو بإبراز مذهبه الشيعى عندما ذكر على بقوله عليه السلام ، ولم يذكر الصديق ولا الباب الذى كان يدخل منه .

ثالثاً : اهتم خسرو بإبراز أحد الأسواق ، وهى إشارة مهمة لاهتمامه بالحياة الاقتصادية .

رابعاً : لم يغفل خسرو أن يذكر مآل بيت أبى جهل عندما ذكره أنه أصبح مرحاضاً فى عصره .

ويصف ناصر خسرو ارتفاع باب الكعبة عن الأرض فى عصره بقوله :" ويرتفع باب الكعبة عن الأرض أربع أذرع بحيث إذا وقف رجل مديد القامة على الأرض يصل إلى عتبته وقد صنع سلم من الخشب يضعونه وقت الحاجة أمام الباب فيصعد عليه الناس ويدخلون الكعبة ويسع عرض هذا السلم عشرة رجال يصعدون وينزلون بعضهم بجانب بعض وأرض الكعبة عالية بهذا المقدار"[٣٩]. ثم يفصل خسرو وصفه لباب الكعبة بقوله :" وهو باب من خشب الساج له مصراعان ارتفاعه ست أذرع ونصف ذراع وعرض كل من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع فعرضهما معا ثلاث أذرع ونصف وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة كما أن عليه دوائر زخرفية من فضة وكتابات منقوشة بالذهب والفضة وقد كتبت عليه هذه الآية حتى آخرها * (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) * وله حلقتان كبيرتان من الفضة أرسلتا من غزنين وقد ركبتا في مصراعيه بحيث لا تصل إليهما يد إنسان ومن تحتها حلقتان أخريان من الفضة أصغر حجما وموضوعتان بحيث تصل اليد إليهما وفيهما قفل كبير من الفضة أيضا يقفل به الباب ولا يفتح ما لم ينزع القفل"[٤٠].

ولا يتركنا خسرو فى حيرة عن ما بداخل الكعبة فيصفها لنا من الداخل ، ويذكر حوائطها ومحاريبها والنقوش الموجودة بها فيقول :" يبلغ سمك حائطها ستة أشبار وأرضها مغطاة بالرخام الأبيض وبالكعبة ثلاث خلوات صغيرة كأنها دكاكين إحداها تقابل الباب والأخريان على الجانب الشمالي والأعمدة التي بالكعبة والتي أقيم عليها السقف كلها من خشب الساج المربع إلا عمودا واحدا مدورا وفي الجانب الشمالي قطعة مستطيلة من الرخام الأحمر يقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصلي عليها ويجتهد كل من يعرف ذلك أن يصلي هناك وقد غطيت حوائط الكعبة بألواح الرخام الملون وعلى الجانب الغربي منها ستة محاريب من الفضة ألصقت بالحائط بمسامير ويبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل وهي مزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة وهي مرتفعة عن الأرض وحوائط الكعبة

---

[٣٩] نفسه ، ص١٤٦.

[٤٠] نفسه ، ص١٤٦،١٤٧.

الأربعة حتى أربعة أذرع من الأرض خالية من النقوش وأما بعد ذلك إلى السقف فمزينة بالرخام المنقوش والموشى أغلبه بالذهب"[٤١].

ولأهمية مقام إبراهيم فإن خسرو يقف عنده ويصفه ويحدد موقعه من الكعبة تحديداً دقيقاً فيقول :" ومقام إبراهيم عليه السلام شرقي الكعبة وهو الحجر الذي به آثار قدمي إبراهيم عليه السلام وهو مركب في حجر آخر وعليه غلاف مربع من الخشب بارتفاع قامة الرجل وهو في غاية الدقة ووضعت عليه ألواح من الفضة وقد أحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين وعليه قفلان وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يلمس الحجر وبين الكعبة ومقام إبراهيم ثلاثون ذراعا"[٤٢].

وتستوقف بئر زمزم خسرو فيصفها ويصف طعم ماءها وفوهتها والأحواض التى يصب فيها الماء بقوله :" بئر زمزم شرقي الكعبة حذاء ركن الحجر الأسود وبين زمزم والكعبة ست وأربعون ذراعا وسعة البئر ثلاث أذرع ونصف في مثلها وماؤها ملح ولكنه يستساغ وقد بنوا عند فوهتها خرزة من الرخام الأبيض ارتفاعه ذراعان وفي جوانب حجرة زمزم الأربعة أحواض يصب فيها الماء ويتوضأ الناس به وأرضها من الخشب المشبك ليسيل الماء الذي يراق بها وبابها ناحية المشرق "[٤٣].

وذكر خسرو امتياز قبيلة بني شيبة بحفظ مفتاح باب الكعبة[٤٤]؛ وهو الأمر الذي ذكره فيما بعد ابن جبير في القرن ٦هـ كما سيتضح بعد قليل عند الحديث عن سدانة البيت الحرام ، وابن بطوطة في القرن ١٤هـ، وذكر أنهم يقومون بفتح باب الكعبة أيام الإثنين والخميس والجمعة من شهور شعبان ورمضان وشوال قبل أن يغلق مع مجيء شهر ذي القعدة.

ويصف خسرو مكة المكرمة فيقول:" تقع مكة بين جبال عاليه ، ولا ترى من بعيد ، من أي جانب يقصدها السائر ، وأقرب جبل منها هو جبل أبي قبيس[٤٥]، وهو مستدير كالقبة ، لو رمى سهم من أسفله لبلغ قمته. وهو شرقي مكة ، فترى الشمس من داخل المسجد وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال إن إبراهيم عليه السلام رفعه ، وتشغل هذه المدينة الوادي الذي بين الجبال والذي لا تزيد مساحته عن رميه سهمين في مثلها ، والمسجد الحرام وسط هذا

---

[٤١] نفسه ، ص١٤٧.

[٤٢] نفسه ، ص١٤٩.

[٤٣] نفسه ، ص١٥٠،١٤٩.

[٤٤] نفسه ، ص١٥١.

[٤٥]جبل أبي قبيس، هو أحد الأخشبين وهو جبل في الجهة الشرقية للمسجد الحرام، ويبلغ ارتفاعه ٣٧٥م عن سطح البحر. سمي بذلك لأن رجلاً يقال له: أبو قبيس، أول من قام بالبناء عليه .ويعرف جبل أبي قبيس بأنه أول جبل وضع على الأرض،ويسمى أيضا بالجبل الأمين بسبب احتفاظه بأمر من الله بالحجر الأسود في بطن الجبل، لأن الركن الأسود كان فيه مستودعاً عام الطوفان فلما بنى إبراهيم الخليل البيت نادى أبو قبيس أن الركن مني بموضع كذا وكذا، وقيل أتى به جبريل من الجبل وسلمه إلى إبراهيم. وقيل سمي بأبي قبيس لأن الحجر الأسود اقتبس منه.أنظر: أيمن إبراهيم فودة: ذاكرة المكان، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص١٥.

الوادي ومن حوله مكة والشوارع والاسواق. وحيثما وجدت ثغرة بين الجبال سدت بسور قوي وضعت عليه بوابة، ولم يكن عندئذٍ بمكة شجر أبداً إلا عند الباب الغربي للمسجد الحرام المسمى باب إبراهيم حيث يوجد كثير من الشجر الكبير الذي يرتفع على حافة بئر"[٤٦].

ومما سبق يتضح الآتى :

أولا : حرص ناصر خسرو على وصف مكة وصفاً دقيقا ، وإبراز جبالها لا سيما جبل أبى قبيس.

ثانياً : أن حديث خسرو عن البيت الحرام وسط مكة ، وتحديده الشوارع والأسواق من حوله أن يؤكد على أهمية البيت الحرام فى تحقيق العمران بمكة إذ إن الشوارع تلتف حوله والاسواق .

ثالثاً : حرص ناصر خسرو على إبراز المعالم الدينية بالحرم المكى ومنها برج من الحجر على قبة الرم رفعه إبراهيم عليه السلام .

رابعاً : اهتم ناصر خسرو بإبراز صورة حية للحياة النباتية بوادى مكة حيث يوجد الكثير من الشجر الكبير على حافة بئر من الآبار .

ويستطرد خسرو في وصف مكة ، وذكر أسواقها ودكاكينها قائلا "عند الجانب الشرقي للمسجد سوق تمتد من الجنوب إلى الشمال، وفي أولها ناحية الجنوب جبل أبي قبيس " ويذكر خسرو أن كثير من المنازل قد شيدت على بعض الجبال . ثم يصف ما يفعله الحاج عند دخوله البيت الحرام من طواف وسعي وتلبية وصلاة . ويقول أن الحاج عندما ينزل من جبل المروة بعد أن ينهي سعيه " يجد سوق بها عشرون دكاناً متقابلة، يشغلها جميعاً حجامون لحلق شعر الرأس " . ويكمل قائلاً " وحين يتم الحاج شعائر العمرة ويخرج من المسجد الحرام، يدخل السوق الكبيرة التي تقع ناحية الشرق والمسماة سوق العطارين ، وهي سوق جميلة به بنايات وبها عطارين"[٤٧].

ويخبرنا خسرو أنه كان بمكة "حمامان بلاطهما من الحجر الأخضر السنان". وقدر خسرو أن سكان مكة، القاطنون بها أبان زيارته لها "لا يزيدون على ألفين " ويقول أن الباقي " ويقربون خمسمائة " من الغرباء والمجاورين ". وقال خسرو عن الماء في مكة انذاك أن " ماء أبار مكة صالح ومر لا يستاغ شربه، ولكن بها كثيراً من الأحواض والمصانع الكبيرة، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة ألاف دينار . وهي تملأ من ماء الأمطار الذي يتدفق من الأودية ". وتحدث عن بئر يسمى بئر الزاهد وقال أن " عنده مسجد جميل " وقال أن ماء هذا البئر عذب ويحمله السقاءون إلى مكة لبيعه .[٤٨]

تعرض ناصر خسرو للحياة السياسية بمكة عندما أكد على تبعية مكة للدولة الفاطمية ، وحرص الفاطميين على ذلك وإرسال الخلع والهدايا والكسوة حيث يعبر عن ذلك بقوله: "وفى هذه السنة أيضاً لم يسافر الحجاج ، ولكن

---

[٤٦] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٣٨.

[٤٧] خسرو : سفر نامة ، ص١٤٠،١٣٩.

[٤٨] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٤١،١٤٠.

السلطان لم يقصر البتة فى إرسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة وأجور الخدم والحاشية، وأمراء مكة والمدينة، وصلة أمير مكة، وكانت ثلاثة آلاف دينار فى الشهر، وكانت ترسل إليه الخيول والخلع مرتين فى السنة، وعهد بهذا فى هذه السنة إلى رجل اسمه القاضى عبدالله من قضاة الشام ، وقد ذهبت معه عن طريق القلزم "[٤٩].

وبشأن الوضع الاقتصادى بمكة الذى ارتبك بسبب القحط الذى ضربها فإن ناصر خسرو يقف عنده ويفصله بقوله :" وقد بلغنا مكة فى يوم الأحد السادس من ذى الحجة، ونزلنا عند باب الصفا، وكان بمكة قحط ، فكانت الأربعة أمنان من الخبز بدينار نيسابورى[٥٠]، وقد هاجر منها المجاورون، ولم يفد عليها حاج من أى بلد .... وقد خرج من الحجاز خلق كثير مما أصابهم من الجوع والفقر وتفرقوا فى البلاد " [٥١].

وتجدر الإشارة إلى أن القحط الذى أشار إليه ناصر خسرو بمكة وتسبب فى إرباك الوضع الاقتصادى قد أشار إليه مؤرخو مكة [٥٢] مما يؤكد دقة خسرو وأمانته فى النقل.

ويفصل لنا ناصر خسرو أهمية شعيرة الحج اقتصاديا على بعض الطوائف القاطنة بالحجاز والتى تتنقل بين مكة والمدينة، لا سيما الأعراب الذين كانوا يعملون فى مهنة كراء الدواب لنقل الحجاج إلى مكة ، وتحديدا جبل عرفات ، فيصف خسرو عملهم وما كانوا يحصلون عليه من الأجر بقوله :" وفى هذه الحجة ... قام جماعة من أهل خراسان عن طريق الشام ومصر ، فبلغوا المدينة فى سفينة، وقد بقى عليهم أن يقطعوا مائة فرسخ وأربعة حتى عرفات وهم فى السادس من ذى الحجة. فقالوا إن كلاً منا يدفع أربعين ديناراً لمن يرحلنا إلى مكة فى هذه الأيام الثلاثة الباقية لنلحق الحج ، فجاء الأعراب وأوصلوهم إلى عرفات فى يومين ونصف يوم وأخذوا أجورهم ذهباً، وكانوا قد شدوهم إلى جمال سريعة ، وأتوا بهم من المدينة إلى عرفات، وقد هلك اثنان منهم، وكانوا موثقن على الجمال، وكان اربعة منهم نصف أموات، وقد بلغوا عرفات ونحن هناك ساعة صلاة العصر ،وكانوا لا يستطيعون الوقوف أو الكلام ن قالوا إنا توسلنا كثيراً فى الطريق أن يأخذ هؤلاء الأعراب الذهب الذى اشترطنا وأن يتركونا، وأنه لا طاقة لنا على مواصلة السفر، ولكنهم لم يسمعوا لنا وساقونا على هذا النحو ...."[٥٣].

---

[٤٩] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٢٨.

[٥٠] يقل الدينار النيسابورى عن الدينار المغربى الذى امتاز بجودة عياره،فالثلاثة دنانير مغاربية تساوى ثلاثة ونصف نيسابورية .أنظر:إبراهيم القاسم:دور الضرب فى الإسلام فى القرنين الأول والثانى،القاهرة،١٩٩٩م؛صفى على محمد: مدن مصر الصناعية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،ص٥٨-٦٠.

[٥١] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٢٧.

[٥٢] ابن فهد:إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت وعبدالكريم الباز ، دار المدنى ، جدة ،٦٢/٢؛وانظر:الفاسى:شفاء الغرام،٤٣٠/٢.

[٥٣] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٢٨،١٢٩.

ومما سبق يتضح أن أجر طائفة الأعراب كان من الذهب، وأن وسيلة النقل كانت الجمال السريعة، وأنهم ربطوا الحجاج على الجمال حتى لا يتساقطون حال الإسراع ، وأن الحجاج عانوا الأمرين حتى أنهم عرضوا على الأعراب التوقف لعدم قدرتهم على مواصلة الرحلة إلى عرفات .

وفيما يخص الوضع الاقتصادى فقد تحدث خسرو عن بعض فاكهة مكة وخضرواتها قائلاً أن العنب قد أثمر بها خلال مارس أبريل وأن البطيخ كان متوفراً في الفترة ابريل – مايو وقال أن الفاكهة كانت" متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع قط " كما ذكر أنه رأى الخيار والأترنج والباذنجان في الفترة من يناير فبراير وأنها كانت طازجة. كذلك فقد اهتم ناصر خسرو بالوقوف على سقاية الحجاج وخزانة الزيت فأشار إلى ذلك بقوله : " وأمام البئر ناحية المشرق بناء آخر مربع عليه قبة يسمى سقاية الحاج وضع به أزيار يشرب منها الحجاج وبعد هذا البناء ناحية الشرق بناء آخر مستطيل عليه ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل "[٥٤].

كما وصف ناصر خسرو ماء مكة وموارده بقوله: وماء آبار مكة مالح ومر لا يساغ شربه ولكن بها كثيرا من الأحواض والمصانع الكبيرة بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار وهي تملأ من ماء الأمطار الذي يتدفق من الأودية وكانت فارغة ونحن هناك. وقد أنشأ ابن أحد أمراء عدن مجرى للماء تحت الأرض وأنفق عليه أموالا كثيرة يسقى منه ما على حافتيه من شجر في عرفات وقد حبس هذا الماء هناك حيث غرست الحدائق فلا يصل قرب مكة منه إلا القليل لأن القناة لا تبلغها وهذا القليل يجمع في حوض خارج مكة فيأخذ منه السقاءون ويذهبون به إليها ويبيعونه[٥٥].

وفيما يخص الحياة الاجتماعية أشار ناصر خسرو إلى فئة المجاورين بمكة وهو يتحدث عن نفسه قائلا : " في هذه السنة كنت بمكة مجاوراً منذ أول رجب وعادتهم أن يفتحوا باب الكعبة كل يوم في هذا الشهر منذ شروق الشمس"[٥٦]. ويؤكد ناصر خسرو على أن للمجاورين بمكة مساكن فيقول: وكان لأهالي كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة ولكن أغلبها كان خرابا وقتذاك[٥٧] كما أشار ناصر خسرو إلى فئة السقائين الذين ينقلون الماء من بئر الزاهد إلى مكة [٥٨]. وفى إشارة عابرة أوضح لنا حال الأبنية التى شيدها الخلفاء العباسيون بمكة تيسيراً على الحجاج والمجاورين فقال: وقد بنى بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة كان بعضها وأنا هناك خربا والبعض الآخر اشتراه الناس أصبح ملكا خاصا[٥٩].

---

[٥٤] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٥٠.

[٥٥]ناصر خسرو : سفر نامه،ص

[٥٦]ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٥٠.

[٥٧] ناصر خسرو:سفر نامة،ص

[٥٨] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٤١.

[٥٩] ناصر خسرو : سفر نامه،ص

ومن المظاهر الاجتماعية التى استوقفت ناصر خسرو فى رحلته فتح باب الكعبة وطقوس ذلك ، ومن يقوم بالفتح فى أول رجب من كل عام وهو ما أشار إليه بقوله :" امتازت قبيلة من العرب تسمى بني شيبة بحفظ مفتاح باب الكعبة وهم خدمها وكان لهم خلع ومشاهرات من سلطان مصر ولهم رئيس بيده المفتاح وحين يجيء يصاحبه خمسة أو ستة أفراد وحين يصلون ينضم إليهم عشرة من الحجاج فيرفعون السلم الذي قدمنا وصفه ويضعونه أمام الباب فيصعد هذا الشيخ ويقف على العتبة ويصعد بعده رجلان ويرفعان الستار والديباج الأصفر يمسك كل منهما طرفا منه بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب يفتح الشيخ القفل وينزعه من الحلق بينما الحجاج وقوف أمام الكعبة فحين يفتح الباب يرفعون أيديهم بالدعاء فيعرف كل من يسمع صوتهم بمكة أن باب الكعبة قد فتح فيرفع الناس جميعا أصواتهم عالية ويدعون ربهم وتحدث جلجلة عظيمة بالبلد ثم يدخل الشيخ بينما الرجلان يمسكان الستار ويصلي ركعتين ثم يعود فيفتح الباب على مصراعيه ويقف على العتبة ويقرأ الخطبة عليهم بصوت مرتفع ويصلي على رسول الله عليه الصلوات والسلام وعلى أهل بيته ثم يقف الشيخ وأصحابه على جانبي باب الكعبة بينما يأخذ الحجاج في الصعود ودخول الكعبة فيصلي كل منهم ركعتين ثم يخرج ويدوم ذلك إلى قرب منتصف النهار ويولون وجوههم أثناء صلاتهم بالكعبة نحو الباب مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى وقد أحصيت الناس في وقت كانت الكعبة ممتلئة فيه حتى لم يكن بها مكان لداخل فكانوا عشرين وسبعمائة رجل وعامة حجاج اليمن يشبهون الهنود فكل منهم يتشح بفوطه وشعورهم متدلية ولحاهم مضفرة وفي وسط كل منهم حربة قطيفية كالتي يتمنطق بها الهنود ويقال إن أصل الهنود من اليمن وأن قتالة أصلها كتارة (الحربة) ثم عربت وبفتح باب الكعبة أيام الاثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال فإذا جاء ذو القعدة أغلق الباب " [٦٠].

ومن أبرز الأماكن التى استوقفت خسرو بمكة منطقة الجعرانة[٦١] التى وصفها على عصره وصفاً دقيقا ، وذكر ما بها من أمور كانت خاصة بالنبى وعلى بن أبى طالب ، وذكر الخبز الذى يصنع هناك ويرسل للآفاق حيث يقول: " على أربعة فراسخ من شمال مكة مكان يسمى الجعرانة كان به النبي عليه السلام مع جيشه في السادس عشر من ذي القعدة فأحرم منه وجاء إلى مكة وأعتمر وهناك بئران بئر الرسول وبئر علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما وماء البئرين عذب جدا وبينهما عشر أذرع وقد اتخذت هذه العمرة النبوية سنة تؤدي في هذا الموسم وقرب البئرين صخرة كبيرة فيها فجوات كأنها كؤوس يقال إن النبي عليه السلام عجن الدقيق فيها بيديه والذين يزورون هذا

---

[٦٠] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٥١.

[٦١] كانت قرية صغيرة قريبة من المسجد الحرام، تقع في وادي الجعرانة، وهى الآن مدينة على بعد ٢٠ كلم شمال شرق مكة المكرمة، اكتسبت شهرة تاريخية بنزول الرسول ﷺ فيها وتوزيع الغنائم بها بعد عودته من غزوة حنين ، بها مسجد الجعرانة الذي بني قبل القرن الثالث الهجري، وهو المكان الذي صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته منتصراً على ثقيف وحليفتها هوازن في وادي حنين في السنة الثامنة من الهجرة.وبها آبار، ونقوش كتابية بخط كوفي يرجع تاريخها لصدر الإسلام، على إحدى الصخور التي تقع قبل الوصول إلى المسجد بحوالي ٢ كلم يميناً. وقيل سميت الجعرانة بهذا الاسم نسبة لامرأة من قريش يقال لها رائطة ولقبها جعرانة وهى امرأة أسد بن عبدالعزى .أنظر:المرادى:بلوغ المرام بالرحلة إلى البيت الحرام،تحقيق محمد زينهم،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،١٤٢٧هـ،ص٩٥.

المكان يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هذين البئرين ويتخذون من الأشجار الكثيرة هناك وقودا للخبز الذي يرسلونه إلى الأقطار تبركا وهناك أيضا صخرة كبيرة مرتفعة يقال إن بلالا الحبشي كان يقف عليها ويؤذن للصلاة ويصعد عليها الزائرون ويؤذنون وحين كنت بالجعرانة كان بها ناس كثيرون وكان بها أكثر من ألف جمل بالعمارات مما يبين كثرة الزائرين الآخرين"[٦٢].

وهكذا قام ناصر خسرو بأداء حجته الأخيرة عام ٤٤٢هـ/١٠٥١م، ثم نزل مع ركبه من عرفات إلى مزدلفة حيث قضى الحجاج ليلة العيد ثم قاموا بصلاة الفجر، وعند طلوع الشمس توجهوا إلى منى حيث التضحية ورمي الحجارة.

وذكر خسرو أن تلك الزيارة كانت زيارته الرابعة لمكة المكرمة وأنه جاور بها من غرة (رجب ٤٤٢هـ /١٠نوفمبر١٠٥٠م) إلى العشرين من ذي الحجة من نفس السنة (٣ مايو ١٠٥١) .بعدها عاد ناصر خسرو علوي إلى مكة فمكث بها عدة أيام حتى العشرين من ذي الحجة عندما رحل عنها إلى الطائف واليمامة والإحساء ثم العراق حيث رحلة العودة إلى موطنه في بلاد فارس[٦٣].

المبحث الثانى: ملامح الحياة بمكة فى العصر الأيوبى من واقع رحلة ابن جبير

وأما ما يخص ملامح الحياة بمكة من خلال رحلة ابن جبير ، فكانت رحلتة إلى مكة فى عهد أسرة الأشراف الهواشم، والتى حكمت من سنة (٤٥٦ –٥٩٧ هـ/ ١٠٦٣– ١٢٠٠ م)، وقد عرفوا بالهواشم نسبة إلى جدهم أبي هاشم محمد بن جعفر مؤسس دولتهم (٤٥٦–٤٨٦هـ)،وقد حرص ابن جبير على أن يمدنا بمعلومات عن حكام مكة فى عصره مع إبداء حكمه فيهم بقوله:" وصاحب مكة مكثر بن عيسى ... من ذرية الحسن بن علي، رضوان الله عليهما، لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم، رضي الله عنهم"[٦٤]، وبقوله:"وفي أعلاه آثار بناء جص مشيد كان اتخذه معقلاً أمير البلد عيسى أبو مكثر ...فهدمه عليه أمير الحاج العراقي لمخالفة صدرت عنه، فغادره خراباً "[٦٥]، وبقوله:"ومن صنع الله الجميل وفضله العميم علينا أنا وصلنا هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة والمتلصصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة، فما منهم إلا أحذ يد القميص، فكفى الله في هذا العام شرهم إلا القليل، وأظهر أمير البلاد التشديد عليهم فتوقف شرهم "[٦٦].

---

[٦٢] ناصر خسرو : سفر نامه ، ص١٥٢.

[٦٣]ناصر خسرو : سفر نامه،ص ؛وانظر:رحاب جناحة:الرحلة الحجازية،ص٣٤٤.

[٦٤] أنظر : رحلة ابن جبير، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص٥٧.

[٦٥]أنظر : الرحلة ، ص٨٥.

[٦٦]أنظر : الرحلة ، ص١٠٠.

وقد أفادنا ابن جبير بأن أشراف مكة لم يكونوا من أهل السنة بل كانوا من الشيعة الزيود وهو ما نص عليه صراحة بقوله :" وللحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم "[٦٧]، وفى موضع آخر يؤكد ابن جبير على فساد مكثر أمير مكة وعلى تشيعه وأسرته بقوله : " وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها: ينتهبونهم انتهاباً، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة أن ييسر الله رجوعه وطنه، ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لينادي وليده ولا يلين شديده. فانه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالاً وطعاماً يأمر بتوصيلها مكثر أمير مكة، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير ترويع الحاج وإظهار تشقيفهم بسبب المكوس"[٦٨].

عقب إسقاط صلاح الدين للدولة الفاطمية بمصر عام ٥٦٧هـ اتجه إلى الحجاز لضعف أمراء مكة وانحيازهم تارة إلى الخلافة العباسية السنية، وتارة إلى الفاطميين[٦٩] . لذا أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخيه توران شاه عام ٥٦٩هـ نجحت فى دخول مكة دون قتال إذ رحب أمير مكة عيسى بن فليتة بتوران شاه وأعلن دخوله فى طاعة صلاح الدين الأيوبى ، وتعهد له بالخطبة بعد الخليفة العباسى[٧٠].

وتتضح سيطرة الأيوبيين على مكة وامتداد سلطانهم إليها من خلال قول ابن جبير: " وفي هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) وصل الأمير مكثر، وأهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأنيهم ورفع أيدي الاعتداء عنهم..."[٧١]، وقد سبق ذكر نص كلام ابن جبير بشأن إزالة صلاح الدين للمكوس مما يؤكد هذه السيادة الأيوبية ، فضلا عن إقامة الخطبة على منابر مكة باسم الخليفة الناصر لدين الله العباسى ثم لصلاح الدين الأيوبى[٧٢].

ويتحدث ابن جبير عن الأسواق العامرة بمكة ويذكر منها سوق المسجد الحرام ويصفه بالسوق العظيم الذى يباع فيه من الدقيق العقيق ، ومن البر الدر.... [٧٣] ، ثم يبين مكان بيع الدقيق كسلعة مهمة بقوله : " مبيع الدقيق بدار

---

[٦٧] أنظر : الرحلة ، ص٧٨.

[٦٨] أنظر : الرحلة ، ص٥٤.

[٦٩] ابن الأثير ، الكامل ، ٣٩٦/١١ ؛ وانظر : الفاسى ، شفاء الغرام ، ١٩٨/٢ ؛ ابن ظهيرة ، الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، ١٣٤٠هـ ، ص١٢٢.

[٧٠] ابن الأثير ، الكامل ، ٤٢٠/١١ .

[٧١] أنظر : رحلة ابن جبير ، ص ٧٤؛ وعن نص كتاب صلاح الدين الأيوبى إلى مكثر أنظر : الفاسى ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ٢٧٨/٧.

[٧٢] الفاسى ، شفاء الغرام ، ٢٠٣/٢.

[٧٣] أنظر : الرحلة ، ص١٦٠.

الندوة جهة باب بني شيبة...."[٧٤]. كما يتحدث عن عدة أسواق أحدهم بين الصفا والمروة ، ثم سوقين للبزازين والعطارين ويصف ذلك بقوله :" سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لايكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً.... وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهما عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها " [٧٥]. كما يتحدث عن سوق منى العامر فى أيام الحج فيقول: " منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس أدنى الخرز، غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا، لأنها مجتمع أهل الآفاق[٧٦].

ويفصل ابن جبير الحديث عن أنواع المبيعات فى المتاجر بقوله:" ولو لم يكن لها من المتاجر إلا الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك، والكافور، والعنبر والعود؛ والعقاقير الهندية، غير ذلك من جلب الهند والحبشة، والأمتعة العراقية واليمانية، وغير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، مالا ينحصر ولا ينضبط، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم..."[٧٧].

ويتحدث عن الفواكه والخضراوات والعسل بالمتاجر فيقول : " كنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه : كالتين، والعنب، والرمان، والخيار، وجميع البقول كالباذنجان، واليقطين، والسلجم، والجزر، والكرنب، ... وغير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة ، وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام، ... ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد ... ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجنى النحل اللباب... وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودي [٧٨].

ويعدد أصنافا أخرى تباع بالمتاجر كالألبان والزبيب واللوز وقصب السكر فيقول: " وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة. ويجلب إليها قوم من اليمن

---

[٧٤] أنظر : الرحلة ، ص١٦٠.

[٧٥] أنظر : الرحلة ، ص٨٥.

[٧٦] أنظر : الرحلة ، ص١٥٧.

[٧٧] أنظر : الرحلة ، ص٩٧.

[٧٨] أنظر : الرحلة ، ص٩٨،٩٧.

يعرفون بالسرور نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر في نهاية الطيب، ويجلبون معه من اللوز كثيراً. وبها قصب السكر أيضاً كثير، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب .."[٧٩].

ويصف ابن جبير الحلوى بقوله : " وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، أنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة[٨٠].

وعن لحوم الضأن يقول : " وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا..." [٨١].

ويتحدث ابن جبير عن لين الأسعار فى أسواق مكة فى العام ٥٧٩هـ فيقول :" وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ، ولين سعرها، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم . كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني ، وهي أوبتان من كيل مصر وجهاتها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي ، وهذا السعر في بدل لاضيعة فيه ولاقوام معيشة لأهله الا بالميرة المجلوبة اليه سعر لاخفاء بيمنه وبركته على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط، ولا سمع بمثله فيها "[٨٢].

ويتحدث ابن جبير عن دور قبائل السرو اليمنية فى تحقيق الرخاء الاقتصادى بمكة فيقول : "فيجتمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب اللوبياء مادونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز. فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة. ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً ... فيرغدون معايس أهل البلد والمجاورين فيه يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار، وتعم المرافق. فيعد منها الناس مايكفيهم لعامهم ميرة أخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش ، ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لايبيعون ... بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان ...."[٨٣].

ويحدثنا ابن جبير عن بعض العادات والتقاليد التى اعتاد عليها أهل مكة فى القرن السادس الهجرى ومنها الخروج فى الليل لسقي الحجاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد [٨٤].

ومن العادات المشتهرة أيضا إقامة الأسمطة المتصلة بين الصفا والمروة فى أشهر رجب، وشعبان، ورمضان والتى يصفها ابن جبير بقوله :" لم يشاهد أحد أكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير إنسانية

---

[٧٩] أنظر : الرحلة ، ص٩٨.

[٨٠] أنظر : الرحلة ، ص٩٨.

[٨١] أنظر : الرحلة ، ص٩٨.

[٨٢] أنظر : الرحلة ، ص١٠٠.

[٨٣] أنظر : الرحلة ، ص١١١،١١٠.

[٨٤] أنظر : الرحلة ، ص٦٦.

وفاكهية وجليت في منصات كأنها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً، فتقيد الأبصار وتستنزل الدراهم والدينار".

ومن هذه العادات التى وصفها ابن جبير بالحسنة أن أهل مكة والمشارقة عموما عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض ، كفعلهم في الأعياد[٨٥].

كما يفصل ابن جبير الحديث عن جملة من الاحتفالات المشهورة بمكة ومنها :

١-الاحتفال بفتح باب الكعبة : كان باب الكعبة يفتح كل يوم اثنين فضلا عن يوم الجمعة إلا في رجب فإنه يفتح كل يوم ، ويفصل ابن جبير عملية الاحتفال بفتح باب الكعبة بقوله :" وفتحه أول بزوغ الشمس، يقبل سدنة البيت الشيبيون ، فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً شبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة ... فيصعد زعيم الشيبيين إليه، وهو كهل جميل الهيئة والشارة، وبيده مفتاح القفل المبارك ... فإذا فتح القفل قبل العتبة ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه وأقام قدر ما يركع ركعتين . ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضاً ويركعون. ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة وأيد مبسوطة لله ضارعة وإذا انفتح الباب كبر الناس وعلا ضجيجهم ونادوا بألسنة مستهلة: اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ، يا أرحم الراحمين. ثم دخلوا بسلام آمنين "[٨٦].

٢-الاحتفال بشهر رجب الفرد : وعن هذا الاحتفال يقول ابن جبير : " وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسيم المعظمة وهو أكبر أعيادهم..." [٨٧].

٣-الاحتفال بعمرة رجب : وهذا الاحتفال يفصل ابن جبير ما يحدث فيه تفصيلا لا يوجد عند غيره فيقول :" والعمرة الرجبية عندهم الوقفة العرفية لأنهم يحتفلون لهها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها ، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل.... ، والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبحتها ، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام[٨٨].

٤-احتفال عمرة الأكمة : يتحدث عنه ابن جبير بقوله : " وفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين ... من رجب ظهر لأهل مكة أيضاً احتفال عظيم في الخروج العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول، فانجفل الجميع اليها، تلك الليلة، رجالاً ونساء على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر تبركاً بفضل هذه الليلة لأنها من الليالي الشهيرة الفضل.... وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة إمام مسجد عائشة... والأصل في هذه العمرة الأكمة عندهم أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً

---

[٨٥] أنظر : الرحلة ، ص١٠١،١٠٢.

[٨٦] أنظر : الرحلة ، ص٧٠.

[٨٧] أنظر : الرحلة ، ص١٠٦.

[٨٨] أنظر : الرحلة ، ص١٠٦-١١٠.

واهل مكة معه فانتهى تلك الأكمة فأحرم منها، وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وجعل طريقه على ثنية الحجون ... التي كان دخول المسلمين يوم فتح لمكة منها... فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه وعلى تلك الأكمة بعينها[٨٩].

٥-احتفال النساء بيوم التاسع والعشرين من رجب : يتحدث عنه ابن جبير بقوله : " فاذا كان يوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له[٩٠].

٦-احتفال ليلة النصف من شعبان : يقول ابن جبير :" وهذه الليلة المباركة ... عند أهل مكة معظمه للأثر الكريم الوارد فيها.. [٩١]. ومن شدة تعلق الناس بهذه الليلة جعلوا بجهلهم زيادة بئر زمزم مرتبطا بها وهو ما أشار إليه ابن جبير بقوله : " والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم ... يقطعون قطعاً جهلياً لاقطعاً عقلياً، أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان" [٩٢].

٨-الاحتفال بقدوم شهر رمضان : قال ابن جبير "ووقع الإيذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور لموافقته مذهبة ومذهب شيعته العلويين ... لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً... ووقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك .. من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلألأ الحرم نوراً وسطع ضياء... [٩٣].

٩-احتفال الليالى الوتر من العشر الأواخر من رمضان : وكل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن. فأولها ليلة إحدى وعشرين، ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ. فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيباً، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور منزله لطعام وحلوى قد أعدهما واحتفل فيهما. ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوي اليسار، غلاماً لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة.. ثم .. إن المعينين من ذلك الجمع، كالقاضي وسواه، خصوا بطعام حفيل وحلوى على عادتهم في مثل هذا المجتمع. وكانت لأبي الخطيب في تلك الليلة نفقة واسعة ...ثم كانت ليلة خمس وعشرين، فكان المختتم فيها الإمام الحنفي، وقد أعد أبناً لذلك سنة نحو من سن الخطيب الأول المذكور. فكان احتفال الإمام الحنفي لابنه في هذه الليلة عظيماً .... ثم كانت ليلة سبع وعشرين..... ثم كانت ليلة تسع وعشرين منه، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح ملتزمين رسم الخطبة إثر الختمة...."[٩٤].

---

[٨٩] أنظر : الرحلة ، ص١١٥،١١٤.

[٩٠] أنظر : الرحلة ، ص١١٣.

[٩١] أنظر : الرحلة ، ص١١٣.

[٩٢] أنظر : الرحلة ، ص١٢٠،١١٩.

[٩٣] أنظر : الرحلة ، ص١٢٠،١١٩.

[٩٤] أنظر : الرحلة ، ص١٣٥،١٣٤.

١٠-احتفال عيد الفطر : قال ابن جبير : " لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام ... فأول من بكر الشيبيون، وفتحوا باب الكعبة المقدسة، وأقام زعيمهم جالساً في العتبة المقدسة، وسائر الشيبيين داخل الكعبة أن أحسوا بوصول الأمير مكثر فنزلوا اليه، وتلقوه بمقربة من باب النبي ... وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة، فأنشدوه واحداً إثر واحد أن فرغوا من إنشادهم ، وفي أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة، وكان ضحى من النهار، فأقبل القاضي الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين، والفرقعة ... وهو لابس ثياب سواده، فجاء المقام الكريم، وقام الناس للصلاة، فلما قضوها رقي المنبر... فخطب خطبة بليغة، والمؤذنون قعود دونه في أدراج المنبر، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره، أن فرغ من خطبته ، وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم الله من فضله، وبادروا البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين مزدحمين عليه فوجاً... وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم ... في زيارة الجبانة بالمعلى تبركاً باحتساب الخطا اليها، والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين من الصدر الأول وسواه، رضي الله عن جميعهم..."[٩٥].

ومما سبق يتضح :

أولا : أن الاحتفال بالعمرة الأكمية فى ليلة السابع والعشرين من رجب توافق عند البعض – رغم عدم صحته – الاحتفال بالإسراء والمعراج، ومن ثم فلا ندرى هل كان أهل مكة يجمعون الاحتفالين فى احتفال واحد ؟ أم أنهم لم يعملوا بقول من قال أن الإسراء والمعراج كان ليلة السابع والعشرين من رجب؟.

ثانيا : أن الاحتفال بليلة النصف من شعبان فى مكة رغم الاختلاف بين أهل الحديث فى صحة النصوص الواردة فى فضلها وما يفعل فيها[٩٦]، يؤكد أن علماء مكة فى تلك الفترة كانوا على القول بجواز الاحتفال ، ولكن ما يلفت النظر هو المغالاة التى وقعت من بعض العوام رجالا ونساءا فى تقديس هذه الليلة وربط بعض الأحداث الخارقة بها كزيادة بئر زمزم كما ذكر ابن جبير .

وعن الإمامة يتحدث ابن جبير قائلا :" وللحرم أربعة أئمة[٩٧] سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية[٩٨] ... وهم روافض سبابون ... ولايجمعون مع الناس إنما يصلون ظهراً أربعاً، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

---

[٩٥] أنظر : الرحلة ، ص١٢٠،١١٩.

[٩٦] من هذه النصوص ما أخرجه البزار عن أبى بكر الصديق بإسناد حسن أن النبى قال إذا كان ليلة النصف من شعبان ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا ، فيغفر لعباده ، إلا ما كان من مشرك أو مشاحن لأخيه .

[٩٧] الإمام هو من يؤم الناس فى الصلوات الخمس والتراويح والعيدين ، وكان النبى محمد أول إمام للمسلمين ، وقد عرفت هذه الوظيفة فى سائر بلدان العالم الإسلامى إذ أصبح لكل مسجد إمام راتب يؤم المسلمين ، وكان للمسجد الحرام إمام واحد إلى أن استحدثت المذاهب الإسلامية فأصبح لكل مذهب إمام بالحرم . أنظر : عبدالحفيظ حمدى بن حامد السالمى ، الحياة الدينية فى مكة المكرمة خلال العصر المملوكى ، رسالة ماجستير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٥هـ ، ص١٣٤.

فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله، وإنما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الإمام العباسي، وهو أول من يصلي ، وصلاته خلف مقام إبراهيم ... إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها : يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة ، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة ، وربما دخل في هذا الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة. فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه[٩٩].

ويتحدث ابن جبير عن أبهة الإمام الحنفى وإشعال الشمع فى محاريب الأئمة بقوله : " وهو أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير، وصلاته آخراً .... ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاريبهم ، والمالكي أقلهم شمعاً وأضعفهم حالاً لأن مذهبه في هذه البلاد غريب ، والجمهور على مذهب الشافعي وعليه علماء البلاد وفقهاؤها[١٠٠].

ورد ذكر القاضى[١٠١] عند ابن جبير عرضا إذ كان مع جملة المشايخ حاضرا لختمة القرآن بالحرم المكى فى ليلة الحادى والعشرين من رمضان ، وعقب انتهاء ختمة القرآن فى الليلة الثالثة والعشرين من رمضان ، وجدنا القاضى مع وجوه القوم فى حفلة الإطعام ، كما رأيناه يؤم المصلين فى الحرم فى صلاة العشاء ليلة السابع والعشرين ، ثم يخطب فى القوم وكانوا كثرة لا تحصى[١٠٢]، وفى صبيحة عيد الفطر كان القاضى هو من ترقى منبر الحرم ليلقى الخطبة على الجموع الغفيرة[١٠٣]، ومن اختصاصات القاضى حسب ما ورد عند ابن جبير أنه كان يتلقى الشهادة من الناس بشأن رؤية الهلال، ويحدد يوم الوقوف بعرفة [١٠٤]، وكان يدعو الناس لصلاة الاستسقاء حال القحط ويصلى بهم [١٠٥]، وكانت داره بإزاء الحرم الشريف ، وتفتح أبوابها على الحرم [١٠٦].

---

[٩٨]إحدى فرق الشيعة يقولون بإمامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وينقسمون إلى ثلاث فرق الجارودية والسليمانية والنبوية ، وهى أقرب فرق الشيعة لأهل السنة . أنظر : البغدادى ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، د.ت ، ص٣٦.

[٩٩]أنظر : الرحلة ، ص٧٨،٧٩.

[١٠٠]أنظر : الرحلة ، ص٧٩.

[١٠١] القضاء : هو الفصل فى الخصومات ، وكان القاضى يعين فى مكة من قبل السلطة الأيوبية فى مصر ، بعد استشارة كبار العلماء فى مصر، وكانت الأحكام القضائية تصدر وفق مذهب الإمام الشافعى حسب تعليمات صلاح الدين الأيوبى ، وأحيانا ما كان يكلف القاضى بمناصب أخرى مثل خطابة المسجد الحرام ، ونظر الأوقاف والحسبة بمكة. أنظر : ابن فهد ، الدر الكمين بذل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق عبدالملك بن دهيش ، دار خضر للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٥٦/١.

[١٠٢]أنظر : الرحلة ، ص١٢٧،١٢٨،١٣١،١٣٢.

[١٠٣]أنظر : الرحلة ، ص١٣٤،١٣٥.

[١٠٤]أنظر : الرحلة ، ص١٤٧.

[١٠٥]أنظر : الرحلة ،ص١٣٨.

[١٠٦]أنظر : الرحلة ، ص٨١.

ومن جملة المعلومات التى أمدنا بها ابن جبير حديثه عن سدانة البيت[١٠٧]، وعن صاحب هذه الوظيفة فى عهده بقوله : " وأخبرني زعيم الشيبيين الذين إليهم سدانة البيت وهو محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب حجابة البيت "[١٠٨].

وقد أشار ابن جبير وهو يتحدث عن طقوس صعود خطيب البيت الحرام إلى أن رئيس المؤذنين [١٠٩] الزمزمى يكون متقدما أمام الخطيب. كما أشار إلى وجود مؤذن لكل إمام من أئمة الحرم بما فيهم الزيدية الذين كانوا يزيدون في الأذان " حي على خير العمل إثر قول المؤذن حي على الفلاح "[١١٠].

ومن جملة أعمال المؤذن الزمزمى أنه كان يقوم بدور المسحراتى وعن ذلك يقول ابن جبير : "والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم في وقت السحور فيها داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه...."[١١١].

وفيما يخص الأحوال الدينية نرى ابن جبير يقدم لنا وصفا رائعا لجملة من المشاهد والمواضع المقدسة بمكة ومنها :

١-موضع المقام الكريم : هو الذي كان يصلى النبى خلفه، ويحدد ابن جبير موقعه مع وصف دقيق له بقوله : " يقابل مابين الباب الكريم والركن العراقي... وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد .... وحوله تكفيف من حجارة نصبت على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر، وطوله خمس خطاً، وعرضه ثلاث خطاً ، وأدخل المقام ... في البيت الكريم احتياطاً عليه ، وبينه وبين صفح البيت الذي يقابله سبع عشرة خطوة، والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار..... " [١١٢].

٢-حجر مس رأس النبى : قال ابن جبير : " وبمقربة منه (أى مسجد الخيف) حجر كبير مسند صفح الجبل مرتفع عن الأرض يظل ماتحته، ذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم قعد تحته مستظلاً ومس رأسه المكرم فيه فلان له حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دور الرأس. فيبادر الناس لوضع رؤوس في ذلك الموضع تبركاً واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لاتمسها النار بقدرة الله، عز وجل.[١١٣]

---

[١٠٧] هى القيام بجميع أمور الكعبة المعظمة من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك ، وكان سادن الكعبة يعين من بنى شيبة بمرسوم من السلطة الأيوبية فى مصر ، وأحيانا يكون أمير مكة هو المسئول عن العزل والتعيين .

[١٠٨] أنظر : الرحلة ، ص ٥٩ ؛ ومحمد بن اسماعيل بن عبدالرحمن بن ديلم بن محمد الشيبى كان مسئولا عن السدانة فى العام ٥٧٩هـ ، وهو الحاجب الخامس والثلاثون منذ قصى بن كلاب .

[١٠٩] المؤذنون : هم من يعلمون الناس بوقت الصلاة ، وقد ظهرت وظيفة المؤذن فى عهد النبى ، وكان بلال أول مؤذن فى الإسلام ، وكان للمؤذنين فى مكة رئيس هو الذى يبدأ بالآذان يتبعه سائر المؤذنين الذين يتواجدون فى مآذن الحرم. أنظر : الفاسى ، شفاء الغرام ، ٤٥٦/١.

[١١٠] أنظر : الرحلة ، ص٧٨.

[١١١] أنظر : الرحلة ، ص١٢٣.

[١١٢] أنظر : الرحلة ، ص٦٢.

[١١٣] أنظر : الرحلة ،١٣٨، ١٣٧.

٣-مقام إبراهيم : ويصفه ابن جبير بقوله : " وهذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم .... وهو حجر مغشى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله .... عايناه وتبركنا بلمسه وتقبيله ، وصب لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه. [١١٤]

٤-خزانة مصحف عثمان بن عفان : يقول ابن جبير :" وفي القبة العباسية ... خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، وبخط يد زيد بن ثابت، رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وينقص منه ورقات كثيرة. وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من صفر، كبير الورقات واسعها.... وأعلمنا صاحب القبة ... أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة في أسفارهم اخرجوا المصحف المذكور وفتحوا باب البيت الكريم ووضعوه في القبة المباركة مع المقام الكريم: مقام الخليل ابراهيم ... واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم الله متوسلين. فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم...". [١١٥]

٥-قبرا إسماعيل وأمه هاجر : وعن هذين القبرين يتحدث ابن جبير قائلا : " وتحت الميزاب في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل ، صلى الله عليه وسلم ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلاً شكل محراب تتصل بها رخامة خضراء مستديرة.... وجانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر رضي الله عنها، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف.يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر ، وحق لهم ذلك .... وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار. [١١٦]

٦-مسجد مولد النبى : يصفه ابن جبير بقوله : " والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الظاهر، بني عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به ، والموضع المقدس الذي سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة ... محفوف بالفضة.... يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي، صلى الله عليه وسلم... وتفتح المواضع المقدسة ... وهو يوم مشهود بمكة دائماً" [١١٧] **، وفى موضع آخر يقول ابن جبير عنه : " وهو مسجد حفيل البنيان، وكان داراً لعبد الله بن عبد المطلب، أبي النبي، صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبراً ".** [١١٨]

---

[١١٤] أنظر : الرحلة ،٦٢.

[١١٥] أنظر : الرحلة ، ص٨١،٨٠.

[١١٦] أنظر : الرحلة ،ص٦٥.

[١١٧] أنظر : الرحلة ، ص٩٢،٩١.

[١١٨] أنظر : الرحلة ، ص١٤١.

٧-المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى : ويحدد بن جبير موضع هذا المسجد بقوله : " وعن يمينك ، اذا استقبلت الجبانة المذكورة – جبانة الحجون- مسجد في مسيل بين جبلين، يقال إنه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم".[١١٩]

٨-جبل حراء : وهذا الجبل العظيم من جبال مكة المشهورة يصفه ابن جبير بقوله : " مشرف على منى ، وهو مرتفع في الهواء عالي القنة ، وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما ينتابه ويتعبد فيه ، واهتز تحته فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " اسكن حراء فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد " ، وكان معه أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما ، ويروي : " اثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان " ، وكان عثمان،رضي الله عنه، معهم...".[١٢٠]

٩-جبل ثور : قال ابن جبير : " وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذي آوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه..... وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ويتجنبون دخوله من الباب الذي أحدث الله عز وجل فيه، ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبي، صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم، منه تبركاً به. فيمتد المحاول لذلك على الأرض ويبسط خده بإزاء الشق ويولج يديه ورأسه أولاً ثم يعالج ادخال سائر جسده. فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فينشب ويلاقي مشقة وصعوبة ،حتى يتناول بالجذاب العنيف من ورائه. فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب، ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح، وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذي لا يسع عليه ويمتسك فيه ولا يلجه ليس لرشدة ([١٢١]). جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعاً على صحته لا يشكون. ".[١٢٢]

١٠-دار خديجة بنت خويلد أم المؤمنين : يصفها ابن جبير بقبة الوحي ثم يقول : " وبها كان ابتناء النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم بها – أى بخديجة- ، وقبة صغيرة أيضاً في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، وفيها أيضاً ولدت سيدي شباب أهل الجنة : الحسن والحسين رضي الله عنهما ، وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها".[١٢٣]، وفى موضع آخر يقول ابن جبير : " هو بيت صغير مائل للطول. والمولد شبه صهريج صغير وفي وسطه حجر أسود. وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها، رضي الله عنهما، ومسقط شلو الحسن ولاصق بمسقط شلو الحسين وعليهما حجران مائلان السواد

---

[١١٩] أنظر : الرحلة ، ص٨٨.

[١٢٠] أنظر : الرحلة ، ص٩١،٩٠ ؛ ورد بلفظ حراء عند مسلم وأحمد والترمذى وأب حاتم ، وورد بلفظ اثبت أحد عند البخارى ، ولعل اختلاف الروايات يحمل على تعدد القضية أكثر من مرة .

[١٢١] أى ابن زنا .

[١٢٢] أنظر : الرحلة ، ص٩٤،٩٣.

[١٢٣] أنظر : الرحلة ، ص٩١.

كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين. ومسحنا الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام، رضوان الله عليهم ، وفي الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبي، صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم، شبيه القبة، وفيه مقعد في الأرض عميق شبيه الحفرة داخل في الجدار قليلاً وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور، قيل: إنه كان الحجر الذي كان غطى النبي، صلى الله عليه وسلم عند اختبائه في الموضع المذكور... وعلى كل واحد من هذه الموالد المذكورة قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه. فاذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به ثم أعادها عليه..".[١٢٤]

١١-دار الخيزران ([١٢٥]) ومسكن بلال بن رباح : يقول ابن جبير عنها : " وهي الدار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها سراً مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم حتى نشر الله الإسلام منها على يدي الفاروق عمر ابن الخطاب.. وهي بإزاء الصفا ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال رضي الله عنه، ويدخل اليها على حلق كبير شبيه الفندق قد أحدقت به البيوت للكراء من الحاج. والدار المكرمة دار صغيرة يجدها الداخل الحلق المذكور عن يساره، وهي مجددة البناء، أنفق في بنائها جمال الدين.... نحو الألف دينار ... وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي صلى الله عليه وسلم والصخرة التي كان اليها مستنده، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصخرة التي كان اليها مستنده هي داخلة في الجدار كشبه المحراب...".[١٢٦]

وأخيراً يتحدث ابن جبير عن أماكن نسخ الكتب بالحرم ، ومجالس العلم والقراءة بقولة : " ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها النساخون والمقرئون ... والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ".[١٢٧]

وعن خزانة كتب المالكية يقول ابن جبير : وفيها .. (أى زاوية باب إبراهيم بالحرم) غرفة هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم ....[١٢٨]

الخاتمة

أولا : أن كلا من ناصر خسرو وابن جبير تمتعا بالدقة والتحرى والرجوع إلى المصادر الأصلية بشأن ما دوناه من أخبار مكة.

---

[١٢٤] أنظر : الرحلة ، ص ١٤٢،١٤١.

[١٢٥] هى دار الأرقم بن أبى الأرقم أول مدرسة فى الإسلام ، وقد اتخذتها الخيزران زوجة المهدى العباسى مزارا ، وعرفت باسمها.أنظر:الأزرقى:أخبار مكة،٢/٢٦٠؛الفاكهى:أخبار مكة،٢/٢٠٨.

[١٢٦] أنظر : الرحلة ، ص١٤٥،٩٢.

[١٢٧] أنظر : الرحلة ، ص٦٨.

[١٢٨] أنظر : الرحلة ، ص٨٣.

ثانيا : أن مكة كانت خاضعة للدولة الفاطمية خلال رحلة ناتصر خسرو ثم للخلافة العباسية وللسيادة الأيوبية فى مصر منذ سقوط الدولة الفاطمية الشيعية ، وذلك خلال رحلة ابن جبير.

ثالثاً : أن مكة فى القرنين الخامس والسادس الهجريين كانت عامرة بالأسواق المتسعة العظيمة من أمثال سوق المسجد الحرام ، وسوق الصفا والمروة ، وسوق البزازين ، وسوق العطارين ، وأنها تفوقت فى تجارتها وتعدد سلعها وبضائعها على الأندلس فى عهدها الزاهى فى عهد الموحدين.

رابعا : أن مكة فى العصر الفاطمى تعرضت للقحط الذى جعل الحجاج والمجاورين يغادرونها بمجرد أداء النسك، وهو ما دعا المستنصر لكى يغدق على أهل الحرم المكى ، والحجاز عامة .

خامساً: أن قبائل الأعراب كانت تستغل موسم الحج لتتكسب المال حتى وإن فرضت فرائض عديدة على الحجاج ، وهو ما صوره ناتصر خسرو ،كما أن قبائل السرو اليمنية لعبت دورا مهما فى تحقيق الرخاء الاقتصادى بمكة من خلال البضائع الوفيرة التى كانوا يقدمون بها لأهالى مكة ، وكان نظام المقايضة وسيلة التعامل فى البيع والشراء بين قبائل السرو اليمنية ومن يشترى منهم من أهل مكة والمجاورين .

سادسا : أن الازدهار الاقتصادى فى مكة يعود إلى موقعها الممتاز على طريق القوافل التجارية القادمة إليها من بلاد الشام إلى اليمن والعكس ، فضلا عن وجود الكعبة المشرفة بها حيث يقصدها الآلاف من المسلمين لأداء فريضة الحج.

سابعاً : أن حلقات الدروس كانت منتشرة فى المسجد الحرام ، وتمثلت فى علم القراءات وتفسير القرآن ، والحديث الشريف وعلومه ، والفقه ، والتصوف وإن كان على نطاق ضيق ، وكان السبب فى انتشار هذه العلوم دون غيرها أن المسجد الحرام كان مركزا مهما من مراكز التوعية الدينية ، فضلا عن تواجد الكثير من العلماء المجاورين من أهل الشريعة .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن الشيبانى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ،ج١ ،ج١١.

الأزرقى : أخبار مكة ، تحقيق رشدى الصالح، دار الأندلس، بيروت.

البغدادي ، أبومنصور عبدالقاهر بن طاهر(ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م): الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، د.ت .

البندارى:تاريخ آل سلجوق،دار الآفاق الجديدة،بيروت،١٩٧٨م.

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (٥٤٠هـ-٦١٤هـ/١١٤٥م-١٢١٧م) : رحلة ابن جبير، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
الجوزجانى:طبقات ناصرى،ترجمة عفاف السيد زيدان،المركز القومى للترجمة،القاهرة،٢٠١٣م.
ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت،١٣٩١هـ/١٩٧١م.
ابن خلكان :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.
ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد،١٣٤٩هـ.
الحسن البصرى : فضائل مكة ، تحقيق محمد زينهم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥م.
الحسينى:أخبار الدولة السلجوقية،اعتنى بتصحيحه محمد إقبال،دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط١ ،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
الحسينى:زبدة التواريخ أخبار الأمراء و الملوك السلجوقية،تحقيق محمد نور الدين،دار اقرأ،بيروت،١٩٨٠م.
ابن حزم : جمهرة أنساب العرب،دار الكتب العلمية،بيروت.
ابن ظهيرة : (جمال الدين محمد جار الله القرشى ت ٩٨٦هـ) : الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، ١٣٤٠هـ.
الطبرى:جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركى، هجر للطباعة والنشر،ط١٤٢٢،١هـ/٢٠٠١م.
الفاسى : (تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى ن ٨٣٢هـ) : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ج٧.
الفاسى:شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام،دار الكتب العلمية ،بيروت،ج٢.
ابن فهد : (عمر بن محمد بن فهد ت ٨٨٥هـ) :
(أ) إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت وعبدالكريم الباز ، دار المدنى ، جدة ، (د.ت) ،ج٤.
(ب) الدر الكمين بذل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، تحقيق عبدالملك بن دهيش ، دار خضر للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ج١.
(ج) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، معهد البحوث العلمية ، جامعة أم القرى ، ط١، ج١.
الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
الفيروزآبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ): القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت.

ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، دار السويدي، أبو ظبي ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م.
ابن فرج الشافعى : السلاح والعدة فى تاريخ بندر جدة ، تحقيق على محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ج٤ .
الراوندى:راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى وآخرين المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،٢٠٠٥.
الزركشى : إعلام الساجد بأحكام المساجد،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،القاهرة.
ابن العبرى:تاريخ مختصر الدول،دار الآفاق العربية، القاهرة.
ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة ، ١٩٩٦م.
المقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م.
المرادى:بلوغ المرام بالرحلة إلى البيت الحرام،تحقيق محمد زينهم،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،١٤٢٧هـ.
ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيي الخشاب ، سلسلة الالف كتاب ، رقم ١٢٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣م .
ناصر خسرو ، ديوان أشعار ناصر خسرو ، طبعة ظهران .
نظام الملك:سياست نامه،تحقيق يوسف حسين بكار،دار الثقافة،قطر،ط٢،١٤٠٧هـ.
ثانيا : المراجع العربية :
أحمد رمضان أحمد:الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربى، جدة، (د.ت).
أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،القاهرة ،د.ت.
أيمن إبراهيم فودة: ذاكرة المكان، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
إبراهيم القاسم:دور الضرب فى الإسلام فى القرنين الأول والثانى،القاهرة،١٩٩٩م.
بدر عبدالرحمن: الحياة السياسية ومظاهرالحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة،١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
سليمان بن عبدالغنى مالكى ، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ، دار الهلال ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ٢٠٠٨م.
السيد محمد الدقن:كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ،مطبعة الجبلاوى،القاهرة،ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
شاكر لعيبي : مقدمة رحلة ابن فضلان ، دار السويدي، أبو ظبي ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.
صفى على محمد: مدن مصر الصناعية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة.

عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
عبدالمنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
عبدالمنعم النمر:تاريخ الإسلام فى الهند،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٢ م.
عبد الرقيب يوسف، الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى، مطبعة اللواء، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
عواطف سلامة؛ قريش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني، الرياض.
حسين مؤنس:ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل،دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
رحاب السيد جناحه:الرحلة الحجازية،دار الآفاق العربية،القاهرة، ط١،١٤٣٥ هـ/٢٠١٣م.
زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،القاهرة،د.ت.
محمد صديق حسن خان : رحلة الصديق إلى البلد العتيق ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، قطر ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
مصطفى الشهابى:الجغرافيون العرب،دار المعارف بمصر، د.ت.
نقولا زيادة:الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت،١٩٨٧م.

ثالثا : الرسائل :

آمال على حسن سلامة:الاتجاه العقلى فى أدب ناصر خسرو،أطروحة دكتوراة،كلية الآداب،جامعة عين شمس،١٩٨٤م.
عبدالحفيظ حمدى بن حامد السالمى ، الحياة الدينية فى مكة المكرمة خلال العصر المملوكى ، رسالة ماجستير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، ١٤٢٥هـ.

رابعاً : الدوريات :

أحمد دراج : إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
حمد الجاسر:جدة القديمة وسكانها،مجلة العرب،١٩٨٢م.